

في الأدوار الأثرية واتقان الصناعة المصرية

من تأمل في هذه الآثار الهائلة المنتشرة في هذا الوادي وعلى جباله علم أن القوم ما سلكوا هذا الطريق الوعر إلا لغايات كانت عندهم من أهم الأمور ذوات البال وهي إما دينية أردنيوية أو كلتاها معًا فقال فريق من الناس أن الملوك لما خافوا من رعيتهم أن تنبذ طاعتهم ظهريًا قصدوا كسر شوكتهم وإماتة قلوبهم بتشغيلهم في هذه الأشغال الشاقة كي لا يجول بخلد هم رفع لواء العصيان عليهم وقال فريق آخر أن هذا القول مردود بدهاة لأنه لو كان هذا هو الغرض لكانت المنافع العامة أخرى لأنها أنفع من إقامة المسلات وبناء الأهرام وعمل التماثيل الهائلة ولا يخفى كثرة تلك المنافع وتنوعها وقال آخرون أن الغرض منها هو تخليد ذكر أصحابها على توالي الأيام والسنين مادامت باقية في الدنيا وقال غيرهم ليس ذلك من الحقيقة في شيء لأنه لو كان صحيحًا لكانوا إكتفوا بكتابة أسمائهم وتواريخهم على الصخور والجبال بدون أن يذكروا أسماء معبوداتهم معهم بل ما كانوا يصورونها فوق أسمائهم على جميع آثارهم والظاهر أنهم كانوا يرون أن أحسن المصنوعات وأكبر المباني تقربهم إليهم زلفى فلذا كانوا يميلون إلى تشييد العمارات الفخيمة ولما كان هذا هو مطمح نظر قدماء المصريين برعوا في كافة الصنائع على إختلافها سيما ما يختص بالديانة كالبناء ونحت الأحجار وصلقلها وتفصيلها وأحكام هندستها التي أدهشت المتأخرين وأخرست ألسن الفصحاء وقد قسمها بعضهم إلى خميسة أدوار كلية.

(الدور الأول) يشتمل على صنائع العائلة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وفي هذا الدور بنيت أعظم المباني البالغة في الضخامة والإتقان إلى حد يحصر اللبيب عن وصفه كالأهرام التي رتبوها من الشمال إلى الجنوب بحسب ترتيب العائلات فجعلوا أهرام العائلة الرابعة بالجيزة وأهرام الخامسة بأبي صير وأهرام السادسة بسقارة وأهرام العائلات الصغيرة التي قامت بين الحادية عشرة والثانية عشرة بدهشور وأي رواش وميدوم على قول بعضهم وأهرام الثانية عشرة بالفيوم لكن دلت لقايا جبل دهشور أن أهرامه كانت للعائلة الثانية عشر إذ وجد على بعض الحلى اسم الملك أوزرتسن والملك أمنمحتت وربما كان بعض أهرام هذا المكان للملك (سنقرؤ) أحد ملوك

العائلة الثالثة على قول بروكش باشا أو الرابعة على قول غيره حيث أظهر الحفر في بعض المساطب التي هناك اسم هذا الملك الأخير وهذه المساطب قريبة من هرم مهديم لعله له ولما فتحته مصلحة حفظ الآثار في أوائل شهر فبراير سنة ١٨٩٥ وجدته أخرساً والظاهر أن أهرام الفيوم للعائلة الثانية عشر أيضاً ويلى الأهرام أبواهل ومعبده وقد سبق تفصيل ذلك كما إشتهرت بعمل التماثيل ودقة الصنعة كتمثال الملك خرع أوكفرم الباني للهرم الثاني بالجيزة (كما تراه في شكله).

ولبست شهرة هذا التمثال فقط من حيثية الأقدمية وأن له ستين قرناً لما إشتمل عليه من حسن الصنعة وإفراغه في قالب بديع جداً مع سبعة مجسمة وجمال هيئته الدالة على سمو الفنون المصرية وأن المصريين كانوا في درجة عالية من إتقان الصناعة وكالتمثال المتخذ من خشب الجميز المعروف باسم شيخ البلد الموجود الآن بالمتحف المصري وما أظن أن الصناعة خشب الميز المعروف باسم شيخ البلد الموجود الآن بالمتحف المصري وما أظن أن الصناعة المصرية سمحت بإيجاد أعلى منه حيث ترى الشخص الذي صنع على شكله كأنه على قيد الحياة خصوصاً هيئة الرأس ودقة الأعضاء واستدارة الجسم وهو يكذب النظر بما عليه من طبقة الطلاء الخفيفة التي أكمل بها المصور بديع صنعه ومنها تمالان وجدا بجوار هرم ميديم بمديرية بني سويف وهما رجل وامرأة جالسان على نصابين من الحجر يتخيل كل من إستعرضهما أنهما ينطقان ويظن من مر أمامهما أن مقلتي عينيهما يتحولان معه إذا تحول عن يمينهما أو يسارهما وعليهما من الطلاوة والدقة ما يدل على تهمر أهل ذلك الوقت في محاكاة الأمور الطبيعية فإنهم جعلوهما في الحسن غاية وفي الإتقان آية وكان تقادم الأيام لم يزد هما إلا جدة وليس الخير كالعيان.

(الدور الثاني) عبارة عن العائلة الثانية عشرة فقط وفيه عاد لمصر شابها فأخذت تدأب في العمل وتعاينه وكأنها إنصبت في قالب ثان ومازالت تستسهل الصعب وتقنم الخطب وتجدد الصنائع وتفتح المنافع حتى رقت أوج الكمال بعدما هوى نجمها ومال ومما ينسب إليها مقابر بني حسن المنحوتة هي وعمادها دفعة واحدة ولله درّ الصانع الذي جعل هؤلاء الأسطوانات على شكل باقات الأزهار تحمل سقفاً من الجبل متصلاً بها وقد مر ذكرها في الرحلة العلمية بها ومنها مسلة فرعون الموجودة الآن بقرية عين شمس، ومسلة أخرى بقرية بيجج بالفيوم ومنها بعض المغارات بجبل أسبوط وقد برهنت لنا هذه الصناعة على أن ذلك العصر كان من أشرف أعصار التواريخ المصرية كما أنه كان من التفتن في كل شيء غير أن مدته كانت قصيرة حتى صدق عليها

قول من قال ما سلم حتى ودع وما أفاق إلا وتصدع.

(الدور الثالث) يتتدى بإجلاء عرب الرعاة عن مصر وهو عبارة عن العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وجزء من العشرين وفيه ظهرت مصر بأعظم مظهر وبرزت بأسمى منظر وانحصرت أعمالها في أمرين عظيمين وهما فتوح البلاد البعيدة وإضافتها إلى ملك مصر وتشيد العمارات العديدة كمعبد جبل البركل القريب من أبي حمد وقلعتي سمنة وقمة فيما فوق وادي حلفه بشيء يسير ومعبد أبسمبل بتلك الجهة وبناحية عمادة من بلاد النوبة ومنها المعبد العظيم الذي كان بجزيرة أسوان وكان من أجمل المعابد المصرية القديمة ومنها الباب المتخذ من حجر الصوان المشق بساحة هيكل امبو والتصاوير البارزة الموجودة بجبل السلسلة مما يحدث عن سيرة الوقائع الحربية أما مدينة طيبة فلم تزل مشرقة الأنوار بجمال آثار هذه الأيام وبهجة عماراتها الفاخرة حيث ترى هناك على الجانب الأيسر من النيل هيكل الدير البحري ومعبد القرنة ومعبد الرميوم المشتمل على أكبر التماثيل المصرية المصنوع من الصوان الأزرق البالغ طوله سبعة عشر متراً وخسين سنتياً من المتر وثقله واحد مليون ومائتان وسبعة عشر ألف وثمانمائة واثنان وسبعون كيلوجراماً وهو أحد الآثار الجسمة التي أخرجتها يد الصناعة المصرية لكنه الآن مكسور ملقى على الأرض مشوه الوجه ومنها صنما ممنون البالغ إرتفاع كل واحد منهما مع قاعدته نحو تسعة عشر متراً وسوف يأتي بيان ذلك في الرحلة العلمية ومنها معبد مدينة (أبو) ومقابر ذراع أبي النجا والعصايف وقرنة مرعي ومقابر باب الملوك ومعبد الأقصر وتماثيله الجافية ومعبد الكرنك ومسلاته وأساطينه الشاحخة وإن لم يكن لهذا الدور إلا ما بقى من رسم كنيسة تل العمارنه الكائنة بجوار قرية الحاج قنديل لكانه فخراً وبرهاناً على تقدم الحرف والصنائع في ذلك العهد الذي هو عصر الرمسيين والنحوتيسيين.

(الدور الرابع) عبارة عن العائلة السادسة والعشرين فقط وفيه أخذت الصنائع والعمارة تعود لحالتها الأصلية بعدما كانت إندرجت في خبر كان ونسجت عليها عناكب النسيان بل تميزما سواها بما فيها من السعة وحسن إفراغ التصاوير الخجلة بما وذكر المؤرخ هيرودوت أن قاعدة هذه الدولة كانت مدينة صا الحجر (التابعة لمركز بسيون غربية) وصارت بحمة ملوكها من أبحج مدن الديار المصرية فقد شيد فيها الملك (أبرياس) هيكلًا لم يكن دون أفخر العمارات المصرية بوجه من الوجوه وشيد له الملك (أماسيس) باباً كبيراً من أغرب الأبنية وأعجب العمارات يفوق بكثير على سائر الأبواب التي من نوعه من حيث الإرتفاع وزيادة الإتساع

والعناية بانتخاب أحجاره من أجود الأحجار وأكبرها ووضع عليه من الصور والتمائيل الهائلة ما يفوق الحدود في العظم وكبر الحجم إلى أن قال ومما يوجد بمدينة صا الحجر من الآثار العظيمة تمثال هائل إرتفاعه خمسة وسبعون قدماً ولم يقتصر الملك (أماسيس) على تشييد الأبواب فقط بل أحضر إليها معبداً صغيراً متخذاً من قطعة حجر واحد نقله من جبال أسوان وقام بنقله من تلك الجهة ألقان من العمال في السفن على النيل مدة ثلاثة أشهر وطوله من الخارج اثنا عشر متراً وعرضه سبعة أمتار وإرتفاعه أربعة أمتار وزنته بعد طرح فارغة نحو أربع مائة وثمانين ألف كيلوجرام (الكيلوجرام ٣٢٠ درهماً) اهـ.

وجميع ما ذكر صار الآن هباء وتفرقت أحجاره أيدي سبأ ولم يبق منه أثر ولا عين ولهذا الدور آثار كثيرة بالمتحف المصري وغيره وجميعها في أعلى طبقات الصناعة ومن تأمل فيما ذكره هيرودوت علم أن هذه الدولة حاولت تقليد أعمال الدولة الخامسة والسادسة بعدما مر عليها ثلاثون قرناً.

(الدور الخامس) وهو الأخير كان مدة البطالسة بمصر ومن نظر لكثرة عماراتهم علم أنه لم يل الديار المصرية من بعد العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة دولة ملوكية أكثر منها آثاراً على شواطئ النيل فإن هؤلاء الملوك البطالسة لم يكتفوا بإصلاح ما كان قد تحرب من الهياكل وإتمام ما كان ناقصاً بل أحدثوا معابد جديدة مثل هيكل الداكة وكلباشن ودبود وندور ببلاد النوبة خصوصاً هيكل جزيرة البريا (جزيرة أسوان) وجزيرة فليا (أنس الوجود) وفي يوم ١٩ من شهر فبراير سنة ٩٥ وجدت لهم آثار جملة معابد في جزيرة الهيسا القريبة من هذه الجزيرة الأخيرة وبالجملة فقد صيروا هذه البقعة من العجب العجائب الذي يسحر العقول ويبهز الألباب حتى صح أن توصف بالإنفراد بين جميع المناظر الجليلية الموجودة بسائر البلاد ومن جملة آثارهم بالديار المصرية هيكل مدينة أمبو وعمارته من أحسن أنموذجات في العمارة القوية وهيكل مدينة إسنا القديمة الذي لولا ما طرأ عليه من الإحتجاب ببناء منازل المدينة المستجدة لكان يظهر في أحسن مظهره ويبدو لعين الناظرين بأعظم منظر وهيكل ارمنت الذي لحقه الآن من الإهتمام ما بلغ به نهاية التمام ومع كون الملوك البطالسة قلدوا مدينة الإسكندرية من حلية العمارات الجسيمة والآثار الفخيمة بما لم نقف على حقيقة حاله الآن فلم يتركوا مدينة طيبة في زوايا النسيان فإنهم هم الذين أنشؤا بالجانب الأيسر من النيل الهيكل المعروف بدير المدينة والمعبد الصغير الموجود بمدينة (أبو) وعلى الجانب الأيمن شادوا الباب الكبير الموجود وحده في الجهة

الشمالية من الكرنك وغير ذلك أما مدينة دندره وما أدراك ما دندره فإن بها الهيكل العظيم الذي هو عارة أثرية فريدة في بابها وسوف يأتي بيانه في الباب الحادي عشر عند الكلام على تفصيل المعابد المصرية والغرض منها.

وكذلك يشاهد أسماء البطالسة مكتوبة على الآثار بجهة قرية الكاب بإقليم إسنا وفي أخميم وناحية بعبت الحجارة بقرب المحلة الكبرى (بمديرية الغربية) وفي غير ذلك من النواحي ويجب أن يعزي إليهم إنشاء أجمل ما يوجد في سرايوم وهو مقبرة العجل أبيس بناحية سقارة والتوايت الكبيرة الحجم التي به وهذه الدولة جملة تماثيل وآثار كثيرة بالمتحف المصري ومتى ذكر ما يؤثر عن دولة البطالسة فلا ينبغي أن ننس حجر رشيد الذي كان مفتاح سر الكتابة المصرية القديمة بعد أن مكثت المدة المديدة والأعصار العديدة وهي من الأسرار المقللة والمشكلات المعضلة.